

الله خلق الخلق لحكمة

..... الله الذي خلقكم وأحسن خلقكم. وليس من حكمته أن يهمل خلقه بلا أمر ولا نهي ولا تعليم ولا إرشاد ولا حكمة لأجلها خلقوا، فإن هذا هو ظن الكفار، قال الله تعالى: { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوِيلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ } أي أن هذا الظن الذي هو اعتقادهم أنهم خلقوا كما خلقت البهائم؛ لأجل أن يأكلوا ويشربوا وينكحوا ويتناسلوا، وأنه ليس لهم من بأمرهم ولا ينهاهم أن هذا ظن الكفار { ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا قَوِيلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ } . ويقول تعالى: { وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ } { لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهَوًا لَّاتَّخَذْتَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنَّ كُفْرًا عَالِينَ بَلْ تَقْدِفُ عَلَى التَّبَاطُلِ قَبْدْمُهُ قَادًا هُوَ رَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ } . وبكل حال فإن من تأمل وتعقل في نفسه، وكذلك فيما أعطاه الله تعالى علم أن ربه الذي أعطاه كل ما يريد وسخر له ما ينفعه ويسر له الأسباب وأعطاه من كل ما سأله، أنه قد فرض عليه فروضا وقد ألزمه بحقه. قد خلقه لأجل أن يعبدوه ولأجل أن يطيعوه؛ وذلك لأنه بعد التفكير والتعقل يعترف ويعتقد أنه سبحانه ما خلق شيئا عبثا، ولم يترك خلقه هملا وأنه ما خلق هذا الإنسان وأعطاه من كل ما يتمناه إلا لحكمة عظيمة ذكرها الله تعالى بقوله: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أَرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أَرِيدُ أَنْ يُطِيعُونِ } فهو سبحانه ما خلقهم ليعتقد بهم من قلة ولا ليتعزز بهم من ذلة. فإنه الغني وهم الفقراء، وهو القوي وهم الضعفاء، ولكنه خلقهم ليعبدوه فعل بهم الأول الذي هو خلقهم وإيجادهم ليفعلوا الثاني الذي هو عبادته أن يعبدوه وحده بعد أن يعترفوا بفضله، فإن الله سبحانه تفضل على عبادته بكل ما تمس إليه حاجتهم وأعطاهم النعم، وسخر لهم كل شيء. إذا نظرنا وإذا الله تعالى سخر لنا كل شيء نتمتع به كما يقول تعالى: { هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا } خلق لكم ما في الأرض جميعا. كل ما في الأرض فإنه خلق لك أيها الإنسان؛ فإذا أن تكون فيه منفعة لك تتمتع بهذه المنفعة، وإذا أن تكون مأمورا بأن تستعمله، وتستخرج ما فيه من المنافع والمصالح، وإذا أن تعتبر به وتذكر بما فيه وتأمل ما فيه من العجائب كل ما فيه فإنه مخلوق لك لتأكل وتتفعم أو لتتذكر وتعتبر. فلو قال قائل: لماذا خلق الله هذه الحشرات؟ ولماذا خلق السباع؟ ولماذا خلق الهوام ذوات السموم وما أشبهها مع ما فيها من الضرر؟ فإن في السباع الضارية اعتداء على البهائم وعلى ما يملكه الإنسان من الدواب، وكذلك أيضا في هذه الحيات والعقارب ونحوها ضرر بلسعها وبنفث سمومها فيمن تلسعه ونحو ذلك، وكذلك أيضا لا فائدة في هذه الحشرات في خلق هذا الذر وهذا النمل وهذه الخنافس والحشرات الصغيرة مثلا والبعوض وسام أبرص، ويسمى الوزغ وما أشبه ذلك لماذا خلقت؟ لا شك أنك مأمور بأن تعرف أنها خلق الله، وتعرف أيضا أن الله ما خلقها عبثا فلا بد فيها من حكمة سواء لأنفسها أو لغيرها، ويعرف ذلك من جربه. ولا أستطيع أن أذكر الحكايات التي تنقل لنا في مثل هذا. يعني من ذلك ما ذكره بعضهم أن بعض الناس استعملوا المبيدات في الحشرات الصغيرة كالنمل والبعوض والطيور الصغيرة التي تقع على بعض الثمار فتفسدها، وما أشبه ذلك، ولما أتفوهوا تسلطت عليهم الطيور التي هي مثلا العصافير ونحوها، سألوا ما السبب؟ فقالوا: إن تلك الحشرات كانت قوتا لهذه الطيور ونحوها، فلما أن فقدتها تسلطت عليكم وعلى كرومكم وعلى أشجاركم فاضطروا إلى أنهم يتركوا الحشرات حتى تكون قوتا لهذه الطيور وما أشبهها، فالله تعالى خلق بعضها قوتا لبعض وما أشبه ذلك. وسمعنا أيضا حكاية أن إنسانا رأى خنفساء فقال: إن خلق هذه الحشرة عبث لا فائدة فيه وأنه ضرر على الوجود؛ فابتلي بقرحه في قدمه عجز الأطباء عن علاجها. بُذل في علاجها كل ما في الوسع فطال الأمد وهو يعالجها ولم تُشف، ثم بعد ذلك جاء أحد السوقة وجعل يمشی في الطريق، ويقول: نعالج من الأمراض نعالج من الفرحات وما أشبهها فجيء به إليه، فقال: علاج هذه الفرحة في خنفساء أخذ خنفساء وأحرقها وذر رمادها على تلك الفرحة فبرئت؛ فعلم أن هذه عقوبته لما استهزأ بخلق الله تعالى وانتقد الرب في أنه خلق شيئا بغير فائدة. وكذلك الكثير من الذين يستسخرون بخلق الله سبحانه وتعالى. نقول: لو لم يكن إلا التفكير أن الإنسان يتفكر في هذه المخلوقات العظيمة؛ ليأخذ منها عبرة فإن فيها آية وعبرة، ولأجل ذلك ورد في الحديث القدسي قول الله تعالى في الحديث القدسي: { ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقك فيخلق ذرة أو يخلقوا برة أو يخلقوا شعيرة } أي: تحد لهم على وجه الإعجاز على أنهم. لا يقدر أن يقدر الخلق كله أن يخلقوا ذرة ينفخوا فيها الروح فتتحرك بطبعها ويركبوا بها مفاصلها وأعضاءها؛ يديها ورجليها وسمعها وبصرها وعروقها وعظامها وجوفها وغذاءها وما تتغذى به، وكيف تتوالد الذرة الصغيرة التي نشاهدها فيخلقوا ذرة؛ أي لا يقدر الخلق على أن يخلقوا مثل هذه الذرة. وكذلك البرة حبة البر لا يستطيعون أن يخلقوا مثلها في طعمها وفي فلقها وفي صورتها بحيث إنها تبذر في الأرض وتنبت، ويكون لها بعد نباتها أغصان وسنبل ونحو ذلك، إذا قلدوها فأخذوا من القمح أو نحوه شيئا ثم طحنوه ثم جعلوه في هذه المقالي. صوروه بصور البر أو كذلك الأرز وسموه برا صناعيا أو رزا صناعيا فإنه ليس له طعم الطبيعي، وكذلك ليس له طبيعته بكونه يبذر وينبت ويكون له ما يكون للطبيعي، كل ذلك لا يستطيعونه؛ لأنه خلق الله. فالله تعالى هو المتفرد بالخلق وحده؛ ولذلك لما ذكر الله المشركين قال بعد ذلك: { أَقْمِنَ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ } أي: لا يستوي الخالق الذي خلق الأرواح وركب هذه الأجساد، وجعلها تتناسل وتتوالد بكثرة، وقدر فيها هذا العدد الذي قدره وأجرى فيها هذه العادة، وجعلها محتاجة إلى هذا الغذاء وجعل الغذاء له أماكن يدخل منها وتتغذى به وتعيش عليه ويكون له فضلة يخرج منها فاسدا قد ذهب منفعتة. وكذلك أيضا قدر ازدواجها، وهدي بعضها إلى بعض كما في قوله تعالى: { الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى } فلا شك أن هذا الخالق له وحده هو الله تعالى خالق كل شيء، ولذلك ذكر الله تعالى بعض مخلوقاته بقوله: { خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْؤُوتَهَا وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ } يعني: يذكر عبادته بهذا كله { وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ رَوْحٍ كَرِيمٍ } ثم قال تعالى: { هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ } الجواب أنهم لم يخلقوا شيئا مماثلا لخلق الله تعالى. أقدرهم الله تعالى على هذه الصناعات اليدوية التي صنعوها مثلا كما أقدر نوحا على أن صنع تلك السفينة العظيمة التي حمل فيها من كل زوجين اثنين، والتي مكثت في البحر مدة طويلة، وكذلك أقدر من بعده على أن يصنعوا هذه الصناعات ولكنها جماد ليس فيها الأرواح وليس فيها الحركة الاختيارية، وليس فيها النفس، وليس فيها الغذاء الطبيعي إنما هي صناعات مخترعة، ولكن لا تدل على أن قدرة الإنسان على مثل قدرة الرب تعالى وإنما قدرته محدودة. وبكل حال فالله تعالى يحث المسلم على أن يكثر من التفكير والتعقل في هذه المخلوقات ليأخذ منها عبرة، وكذلك أيضا يكون تفكره في هذه المخلوقات ولا يحيل فكره في ذات الباري سبحانه وتعالى ولا في تكيف صفاته؛ فإن ذلك من علم الغيب الذي حجب الله تعالى عن الإنسان فقد مر بنا الحديث الذي يقول: { تفكروا في المخلوق ولا تفكروا في الخالق } .